كثيراً ماتتخذ الفكرة الجديدة فى باكورة أمرها صبغة مثالية رفيعة تنأى بها عن طبيعة البشر ، ومن ثم ينشب النزاع بين الفكرة فى مثاليتها ونفسية الإنسان فى شتى غرائزه ، وإنها لمعركة حميدة تنجلى عن الفكرة وقد نالها شىء من التشذيب والترويض ، متأثرة بواقعية الطبع البشرى ، كما تنجلى عن النفس الإنسانية وقد أفادت شيئاً من الصقل والتهذيب ، متأثرة بما للفكرة من مثالية عالية . وإذن تخطو المدنية فى سبيل الحق والعدل والخير ، خطوة جديدة لم تكن سجلتها لنفسها من قبل ! ...

ولعل أكبر العوامل على تطور « الفكرة » وتطور النفسية البشرية معها ، هو ميدان التجربة ، وإنه لميدان يختلف باختلاف البلاد والبيئات والملابسات ، فلكل أناس مشربهم ، ولكل قوم طاقتهم فيما يأخذون وما يدعون من أنظمة وشرائع ، محكومين بما ورثوا من عرف وتقليد ، وما يحيط بهم من أسباب العيش ومرافق الحياة .

حسب « الفكرة الجديدة » — وإن تطرفت فى مثاليتها — أن تنطوى على عنصر صالح ، وأن يكون جوهرها صحيحاً لا زيف فيه ، حسبها أن توائم نفسية الشعب فى مجموعه ، وأن تكمن فيها بذرة النفع وروح الخير ، فذلك قوامها الذى يكفل لها